الكتاب الرابع عشر
وجهة العالم الإسلامي
تأليف مالك بن نبي
تحليل وعرض: أ.د. سليمان الخطيب

إطلالة على سيرة مالك بن نبي:

ولد عام ١٩٠٥م في مدينة قسنطينة في الجزائر لأبوين فقيرين، حيث كان والده يشغل منصب حاجب بالإدارة الحكومية في تبسة، وكانت والدته تعمل خياطة لكي توفر ما يلزم لسد رمق العائلة.

دخل كتابًا قرآنيًا ليتعلم فيه، مقابل مبلغ شهري وتردد على الكتاب أربع سنوات، ولم ينقطع عن الثقافة الإسلامية بعد دخوله إحدى المدارس الفرنسية.

وفي مدينة «تبسة» بدأت آفاقه تتفتح، حيث كان جمهور التبسيين ينقسم إلى تيارين:

١- جماعة يمكثون في المسجد بعد صلاة العشاء لسماع دروس الإمام.

٢- وآخرون يقصدون المقاهي الأهلية حيث القصاصون يقصون بعض حكايات ألف ليلة وليلة، وبني هلال... إلخ.

وفي تبسة أقام حتى سنة ١٩١٨، حيث أنهى دراسة إعدادية تؤهله لدخول المرحلة الثانوية، ولما كان قد نجح بتفوق فلقد أعطي منحة لإكمال دراسته في قسنطينة.

وكانت دراسته في قسنطينة في اتجاهين، عند الأستاذ مارتن في المدرسة الفرنسية، وعند الشيخ عبد المجيد في الصباح في الجامع الكبير، حيث يدرس العربية.

والتحق بالصف الأول بالمرحلة الثانوية، وقد تعرف على بعض تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس، فشعر أنهم وإياه ينتمون إلى الخط الفكري عينه، وفي هذه الحقبة الدراسية، كان يذهب لقضاء العطلة الصيفية عند والديه في «تبسة».

زار مرسيليا وليون عام (١٩٢٤/ ١٩٢٥) ومر على باريس، فلم يجد عملًا مناسبًا فعاد إلى الجزائر.

بعد عودته إلى «تبسة» كان يتردد على نادٍ كان يديره الشيخ العربي التبسي، وفي منطقة «آفلو» تم تعيينه كاتبًا في المحاكم، وكان يطلع في آفلو على جريدة الشهاب التي يصدرها ابن باديس. وعاد إلى قسنطينة عام ١٩٢٨، وتعرف لأول مرة على ابن باديس.

لم يستطع العثور على عمل مناسب بالجزائر وسافر إلى فرنسا في شهر سبتمبر ١٩٣٠، وانضم في مدينة ليون إلى «الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين» وكان حدثًا هامًا انضمام أحد الطلاب المسلمين إلى هذه الوحدة.

لم يوفق بدخول معهد الدراسات الشرقية، لأن الدخول إلى المعهد كما يقول مالك بالنسبة لمسلم جزائري، لا يخضع لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي، وبعدها دخل مدرسة اللاسلكي لدراسة هندسة الكهرباء.

في عام ١٩٣١ هداه الله إلى زوجته الفرنسية، وهناك بدأت لقاءاته مع كثير من زملاء الدراسة والعمل للإصلاح، وكان أبرزهم حمودة بن الساعي، وفي باريس تعرف على المستشرق ماسينيون، وقابل غاندي الذي زار باريس عام ١٩٣٢، وتعرف على فريد زين الدين نائب مدير الخارجية المصري خلال فترة الوحدة بين مصر وسوريا، وتعرف على أفكار شكيب أرسلان الإصلاحية.

عاد إلى الجزائر في صيف ١٩٣٢، فوجد موجة الإصلاح تشمل كل أرجائها، وفجع بوفاة والدته صيف ١٩٣٤.

وتزوج من جزائرية لأن زوجته الفرنسية لا تنجب، وفشلت محاولات سفر عديدة له إلى جده ومصر وأفغانستان وإيطاليا، وتعرف على الشيخ عبد الله دراز خلال بعثة أزهرية، وقابل في باريس أعضاء الوفد الجزائري، ومنهما الشيخان عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي وغيرهما.

في سنة ١٩٣٨/ ١٩٣٩ أسس بمدينة مرسيليا مدرسة للأميين في سن متقدم، ثم قصد مدينة «تبسة» بالجزائر، وضاقت به سبل العيش بالجزائر عقب بداية الحرب العالمية الثانية، فعاد إلى فرنسا عام ١٩٣٩ ووصل إلى القاهرة حوالي سنة ١٩٥٦.

بعد هذا التاريخ انقطعت علاقته مع فرنسا ولم يزرها قط، وبقيت له علاقة بالمراسلة مع زوجته الفرنسية، فلقد بقي وفيًا لها ويرسل لها بعض المساعدات المالية، وفي القاهرة اتصل بالرئيس عبد الناصر، وخصصت له الحكومة المصرية مرتبًا شهريًا، مما ساعده على التفرغ للعمل الفكري.

وبقي في مصر حتى عام ١٩٦٣ بعد استقلال الجزائر، ورجع إلى الجزائر ليصبح مديرًا للتعليم العالي حتى عام ١٩٦٧، وأتقن العربية في القاهرة وبدأ يحاضر ويكتب بها، وكان بيته في مصر بمثابة مدرسة ثقافية يقصدها الطلبة من عرب ومسلمين، يستمعون إلى أفكاره حول سبل الإصلاح، وكيفية مواجهة الاستعمار.

وكان مالك أحد مستشاري المؤتمر الإسلامي، وفيها كانت أغنى مراحل عطائه الفكري، وفي أواخر الخمسينيات تزوج ثانية من قريبة له، لأن زوجته خديجة بقيت في فرنسا.

في عام ١٩٦٣ عاد إلى الجزائر وعمل مديرًا للتعليم العالي، واستقال من منصبه سنة ١٩٦٧ ليتفرغ للعمل الفكري والإصلاح، إلى أن توفاه الله تعالى في ٣١/ ١٠/ ١٩٧٣م.

وكان مالك غزيرًا في إنتاجه الفكري، وبعض مؤلفاته وضعت ككتب، وبعضها مجموعة في محاضرات نسقت في كتب، ومعظم كتبه وضعت بالفرنسية ومعظم كتبه ترجمت ولم تطبع أصولها الفرنسية، ومن أبرز من ترجموا له كان الأستاذ عبد الصبور شاهين، والأستاذ عمر مسقاوي.

أهم مؤلفاته:

الظاهرة القرآنية – شروط النهضة – وجهة العالم الإسلامي – بين الرشاد والتيه – الفكرة الأفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونج – الصراع الفكري في البلاد المستعمرة – المسلم في عالم الاقتصاد – مشكلة الاقتصاد – مشكلة الثقافة – ميلاد مجتمع – إنتاج المستشرقين – آفاق جزائرية – تأملات – في مهب المعركة – دور المسلم ورسالته – مذكرات شاهد القرن (الطفل – الطالب).

وقد اتجه منذ نشأته نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط به، وقد أعطته ثقافته المنهجية قدرة على إبراز مشكلة العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة أولًا وقبل كل شيء، فوضع كتبه جميعها تحت عنوان «مشكلات الحضارة».

إن العودة إلى نتاج الفكر الإسلامي المعاصر، ليس مرغوبًا فيه لذاته، بقدر ما نتوخى منه الوقوف على القدر الذي ساهم به هذا المفكر أو ذلك في فهم الواقع الحضاري الإسلامي، واستيعاب وجهته من خلال المرجعية الإسلامية التي صاغت وبلورت الموقف الإسلامي من المسألة الحضارية، وعليه نستطيع من خلال هذه القراءة المتأنية لفكرنا أن نساهم في معرفة طبيعة التكوين الذي انطلق من خلال فكر أصحاب هذا النتاج، حيث يمكننا هذا الإسهام من مواجهة إشكاليات المسلم الفكرية والحضارية.

ومحاولة بلورة موقف مالك بن نبي من قضية الحضارة أمر نستهدف من ورائه إثراء جهودنا الفكرية المعاصرة، من خلال تواصل وامتداد الفكر الحضاري

الإسلامي، منذ بدأ ابن خلدون إثارة قضية العمران البشرى في واقع الثقافة الإسلامية، ومنطلقًا من رصد الواقع الحضاري للإسلام، وهو ما يشترك فيه ومفكرنا بن نبي.

وفى إطار كتابه «وجهة العالم الإسلامي» فإننا لو حاولنا استخدام الرؤية التحليلية للذات العربية الإسلامية في أزمتها الحاضرة، نجد أن الإخفاق الذي منيت به المجتمعات الإسلامية يرجع إلى غياب مشروع إسلامي، يستلهم الفهم الإسلامي لدور الإنسان واستخلافه في سبيل التمدن، بالإضافة إلى عدم استيعاب العقل العربي الحديث لخطورة الهيمنة الاستعمارية في المجال الثقافي والفكري، حيث يترك ذلك كله آثارًا واضحة في الممارسة الحضارية بين شعوب تستلب هويتها في كل لحظة، وتوجهات مذهبية وإيديولوجية تفقد ذاتيتها التاريخية، وخصوصيتها الحضارية، عندما تخضع إرادتها لخصوصية المشروع الحضاري الغربي الذي يعانى أزمة واضحة في بيئته الخاصة، ومحصلة هذه التبعية الحضارية، الارتهان التاريخي لتطور الغرب وسياساته ونظمه، وإمعان في ترسيخ التخلف الحضاري وتنميته، عبر تثبيت استلاب الإنسان العربي المسلم لصالح الاختراق الغربي.

لقد حاول مالك في مؤلفاته أن يقدم التبرير التاريخي والنقدي لوجهة الحضارة الإسلامية، ويعتبر أن هذه الصناعة هي التي تكشف عن أصول فلسفته حول الحضارة، من خلال التعرف على القوانين التي تحكم الاطراد الحضاري، وهنا ينبثق في رأيه مواجهة إشكالية التخلف الحضاري عند المسلم المعاصر، من خلال التعرف على السنن والقوانين التي تحكم الحركة التاريخية، ومن ثم يمكن استيعاب منحنيات التقدم والسقوط في المسار الحضاري الإسلامي.

ولم يقف بن نبي عند منحنيات الانكسار في تاريخنا الحضاري، وإنما راح يحلل أهم الاتجاهات الفكرية ذات الطابع الإصلاحي والتي ظهرت في الواقع الإسلامي

الحديث والمعاصر، حيث قارن بين الاتجاهين الإصلاحي والحداثي الذي يروج للنمط الحضاري الغربي، ثم يبين الأسباب الداخلية والخارجية لفوضى العالم الإسلامي الحديث، كذلك لا يغفل قراءة الواقع الغربي، حيث يصل من خلال هذه القراءة وتلك التحليلات إلى تحديد وجهة العالم الإسلامي ويرى بعض المحللين أنك حين تقرأ هذا الكتاب تشعر أنك لست تقرأ كتابًا، ولكنك تعيش مأساة أمة، وتعيش معها خلال عشرة قرون أو أكثر، وتمر بعقد قصتها خلال هذه القرون.

إن منهج بن نبي لا يقوم على سرد التفاصيل والحوادث، بل على تحليل عميق لمراحل التاريخ وسير المدنية وتطورها، وهو يقسم تاريخ المجتمع الإسلامي إلى ثلاث مراحل:

أولاها: مرحلة الإسلام الأولى في دفعته الإيمانية الحية، وهى أقوى هذه المراحل في حيويتها وقوتها الدافعة وخصبها، وتنتهي في معركة صفية.

وثانيها: مرحلة المدنية الإسلامية وهى مرحلة التفكير والازدهار الحضاري، وتنتهي بسقوط دولة الموحدين.

وثالثها: مرحلة الجمود والانحطاط، ويصف كل مرحلة من هذه المراحل وصفًا وتحليلًا عميقًا، ويخص المرحلة الأخيرة بالعناية لأنها المرحلة التي لا نزال نعيش في نتائجها وآثارها، ولأنها تمثل في نظره مرحلة القابلية للاستعمار.

ويرى بن نبي أن دراسة التاريخ ذات جوانب متعددة، فإذا تناولناه بالقياس إلى الفرد، وكان دراسة نفسية، والحضارة تعد مظهرًا من مظاهر الحياة والفكر الجماعي، ومن هذا الجانب يعتبر التاريخ دراسة اجتماعية، حيث يتم التركيز على خصائصه الأخلاقية والصناعية المتوفرة في رفعة تلك الحضارة. ولا يعنى التركيز على البناء الحضاري اعتبار المجتمع معزولًا، بل إن تطوره مشروط ببعض الصلات الضرورية مع بقية المجموعة الإنسانية.

وقد أخذت تزداد اتضاحًا يومًا بعد يوم أهمية دراسة الحضارة كوحدة للدراسات التاريخية، وفى هذا الصدد يرى بن نبي أن المشكلة التي استقطبت تفكيره واهتمامه منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هي مشكلة الحضارة، لأن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، فقضية الحضارة هي القضية الكبرى في هذا العصر، بل في كل عصر، إنها الحيز الذي تنبثق منه وتنتظم فيه مختلف القضايا القومية والإنسانية. وقد تطورت بظهور ابن خلدون فلسفة التاريخ عند المسلمين، فانتقلت من التفسير البطولي إلى التفسير الحضاري، وقد أفاد من جهود المؤرخين السابقين، وخصوصًا بعد أن تحركت فكرة التاريخ من الاعتماد على المنقول، وتعلقت بآفاق من التعدد الثقافي في الحضارات الإنسانية، بالإضافة للتعليل العقلي للمادة التاريخية.

ولذلك فيرى بن نبي خلف الأسباب القريبة أسباب بعيدة، تخلع على تفسير التاريخ طابعًا ميتا فيزيقيًا أو كونيًا، أيا كان ذلك.

وهذا يعنى أن مالكًا يطرح جانبين: الجانب الميتافيزيقي أو الكوني، وهو جانب ذو هدف عام وذو غاية، والجانب التاريخي الاجتماعي، وهو جانب مرتبط بسلسلة الأسباب.

والحضارة من هذا الجانب تتمثل أمامنا كأنها مجموعة عددية تتابع في وحدات متشابهة، ولكنها غير متماثلة، وهكذا تتجلى لأفهامنا حقيقة جوهرية في التاريخ هي: «دورة الحضارة» وكل دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين، فهي «حضارة بهذه الشروط» وتستمر حركة الحضارة وتنمو، فإذا ما توقفت دورتها، بدأت تتحول إلى ظروف مختلفة، فهذا هو القانون الذي خُط على مر السنين خلال التاريخ ذلك الطريق الصاعد، الذي منحته البشرية في بطء وروية، وبذلك تمتزج غاية التاريخ بغاية الإنسان.

ويضيف مالك أن ما سبق يبين أن الإنسان عليه أن يعرف العوامل التي تحدد وضعه في مرحلة معينة من مراحل تطوره، ليمكننا نستخلص منها السياسة التي تنطبق على تلك المرحلة، ويرى أنه غنى عن البيان أن ظروف الحياة تعبر عن الحالة العامة في بيئة معينة، وبذلك تكون تلك الظروف مرحلة من مراحل الحضارة.

ويرى بن نبي أن ابن خلدون وحده، هو أول من استنبط فكرة «الدورة» في نظريته عن الأجيال الثلاثة، فقد رد نطاق الحضارة إلى حدود العصبية الأسرية، وهذه النظرية تدفعنا إلى تأكيد الجانب الانتقالي في الحضارة، أي أننا لا نرى فيها سوى تعاقب ظواهر عضوية، لكل منها بالضرورة في مجالها المعين بداية ونهاية.

ويعترض بن نبي على حتمية ابن خلدون في سقوط الحضارات، فإذا كان يقبل بدوره الحضارة على طريقة ابن خلدون – كنقطة البداية والصعود إلى القمة أو الأوج ثم الأفول، فإنه لا يسلم بأنه مكتوب أبدًا على حضارة خفت ضياؤها، وسدر أبناؤها في ليل طويل بألا تقوم لها بعد ذلك قائمة، لأن نهضة الحضارة من كبوتها واستمرار حركتها في التاريخ رهن بشروط نفسية – زمنية معينة إذا ما توافرت وتكاملت انطلقت الحضارة لتساهم بأكبر قدر من الفاعلية في المحيط البشرى.

وتأتى أهمية هذه النظرة من أنها تتيح لنا الوقوف على عوامل التقهقر والانحطاط أي على قوى الجمود داخل الحضارة، إلى جانب شرائط النمو والتقدم، فهي تتيح لنا أن نجمع كلًا لا تتجزأ مراحله، ويضيف مالك – أن التعارض الداخلي بين أسباب الحياة والموت في أية عملية «بيولوجية» هو الذي يؤدى بالكائن إلى قمة نموه ثم إلى نهاية تحلله، أما في المجال الاجتماعي فإن هذه الحتمية محدودة بل مشروطة، لأن اتجاه التطور وأجله يخضعان لعوامل نفسية زمنية، يمكن للمجتمع المنظم أن يعمل في نطاقها حين يعدل حياته، ويسعى نحو غاياته في صورة متجانسة منسجمة.

وكنتاج لهذه الرؤية ينتقد بن نبي مسلك بعض الباحثين حين ينظرون إلى

ظاهرة الحضارة منفصلة عن ظاهرة الانحطاط وإن العالم الإسلامي لفي مسيس الحاجة إلى هذه النقطة، وإلى أفكار واضحة تهدى سعيه نحو النهضة، ولهذا فإن ما يهمنا في المقام الأول أن نتأمل الأسباب البعيدة التي حتمت تقهقره وانحطاطه.

وانطلاقًا من هذه النقطة المتعلقة بأهمية التحليل النقدي لتاريخنا الإسلامي حيث يرى بن نبي أن العالم الإسلامي لفي مسيس الحاجة في هذه النقطة إلى أفكار واضحة تهدى سعيه نحو النهضة، وذلك لن يتم إلا بتأمل الأسباب البعيدة التي حتمت تقهقره وانحطاطه.

ويرى بن نبي أن أول انفصال في تاريخ أمتنا ظهر في معركة صفين عام ٣٨هـ ما بين الزمني والروحي، حتى حسم معاوية ﷺ، وفقد العالم الإسلامي منذ ذلك الحين توازنه الأول، ولكن بقى الفرد المسلم متمسكًا في قرارة نفسه بعقيدته التي نبض بها قلبه المؤمن، ويرى أنه بالرغم من ذلك فنحن ندين لتلك الحضارة التي وصفها بالمنحرفة التي ازدهرت في دمشق في ظل الأمويين باكتشاف النظام المئوي، وتطبيق المنهج التجريبي في الطب، واستخدام فكرة الزمن الرياضية، وهذه هي المعالم الأولى للفكر الصناعي - أي - نهضة الغرب العلمية.

ويستمر بن نبي في موقفه من الأمويين، حيث رأى أن الحضارة الإسلامية في هذه الحقبة صورة مشوهة عن البناء الأصلي الذي شاده القرآن والذي قام على أساس من التوازن بين العقل والروح.

وبالرغم من ذلك يرى بن نبي أن العالم الإسلامي لم يقو على البقاء إبان تلك الأزمة الأولى في تاريخه وبعدها، إلا بفضل ما تبقى فيه من دفعة قرآنية حية قوية، وكان سر تماسكه رجال من أمثال عقبة بن نافع، عمر بن عبد العزيز، والإمام مالك ﷺ عنهم أجمعين، وذلك لأن فضائل الإسلام العظيمة قد تجسدت فيهم بصورة أو بأخرى.

وفى إطار هذه الرؤية يكشف بن نبي عن أهمية الفضائل الخلقية كقوة جوهرية في تكوين الحضارات، والبناء الاجتماعي ينهار، لأنه لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح والروح وحدها، هي التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت، لأنه من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض.

وهذا يعنى تأكيد بن نبي على أهمية وجوهرية الجانب الروحي في تأسيس الحضارات والمجتمعات، بالإضافة إلى حماية المكتسبات التي حققها المجتمع إبان مسيرته التاريخية، فالوقوف عند العلم والعقل والفن لا يكفى لصياغة المعادلة الحضارية ومن ثم تماسك المجتمع وانطلاقه نحو مزيد التواصل والاستمرارية الفعالة، ثم يبرز بن نبي النتيجة المترتبة على غياب البعد الروحي القيمي، فيرى أنه عندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة، أي عندما تكف الرياح التي منحته الدفعة الأولى، تكون نهاية دوره وهجرة حضارته إلى بقعة أخرى، تبدأ فيها دورة جديدة، طبقًا لتركيب عضوي تاريخي جديد.

وفى نفس السياق يقر بن نبي على أن غياب الجانب الروحي، يترتب عليه عدم فاعلية العقل، حيث يفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة «وقوة الإيمان» .

ولكن مالك قد فاته ما أنجزته الحضارة الغربية في المجالات العملية والعلمية ووسائل المعاش، وذلك بالرغم من غياب البعد الروحي في الممارسة الغربية، وكان الأولى بمالك أن يبرز نتائج غياب العامل الروحي من خلال محاور حضارية أخرى، وخاصة في المجالات الاجتماعية والسلوكية، حيث ينتشر التحلل الأسرى وغياب القيم الأخلاقية وما نتج عن ذلك من انتشار المخدرات والمسكرات وشيوع الرذيلة، هذا بالإضافة إلى عنصرية الغرب ومركزيته في النظر للشعوب الأخرى،

وهذا هو الوجه الذي غيبه مالك في الفقرات السابقة، بالرغم من إبرازه في مواضع أخرى من مؤلفاته.

ويطلق مالك على الجانب الروحي كعامل محفز للفعل الحضاري الناجز الدفعة القرآنية الحية، حيث يرى في وهنها توقف العالم الإسلامي، كما يتوقف المحرك عندما يستنفد أخر قطرة من الوقود.

متى وكيف انقلبت القيم الإسلامية في تاريخنا:

لقد أخضع بن نبي تاريخ الأمة الإسلامية، لمنهج خاص حلل من خلاله مراحل الإنجاز التي حققه المجتمع الإسلامي وكذلك مراحل التدهور ومواطن الانكسار التي أصابت تطور الأمة الحضاري والتاريخي.

وفى هذا السياق يرى بن نبي أن الانقلاب لم يكن فجائيًا، إذ هو في النهاية البعيدة للانفصال الذي حدث في صفين فأحل السلطة العصبية محل الحكومة الديمقراطية الخلافية، فخلق بذلك هوة بين الدولة والضمير الشعبي، وكان ذلك الانفصال يحتوى في داخله جميع أنواع التمزق، والمناقضات السياسية المقبلة في قلب العالم الإسلامي.

لقد تحلل التركيب الأساسي نفسه فتحللت معه الحياة الاجتماعية، وأخلت مكانها للحياة البدائية. ويؤرخ بن نبي لهذه الظاهرة في التاريخ الإسلامي في سقوط دولة الموحدين الذي كان في حقيقته سقوط حضارة لفظت أخر أنفاسها.

وجميع الأعراض التي ظهرت في السياسة أو في صورة العمران، لم تكن إلا تعبيرا عن حالة مرضية يعانيها إنسان ما بعد الموحدين، الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية والتي كان يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرقة، جميع مشاكل المجتمع الإسلامي منذ ذلك الحين.

ويرى بن نبي ضرورة تصفية هذه الوراثة السلبية التي أسقطته منذ ستة قرون،

وما دام متقاعسًا عن تجديد كيان الإنسان طبقًا للتعاليم الإسلامية الحقة، ومناهج العلم الحديثة، فإن سعيه إلى توازن جديد لحياته وتركيب جديد لتاريخه سيكون باطلًا عديم الجدوى.

حركة الإصلاح في الواقع الإسلامي الحديث:

حين ترك الاستعمار الدول المستعمرة، فقد تم ذلك من خلال الإطار الجغرافي والعسكري، واستطاع أن يخلف فصيل غير قليل من رموز الدول التي رحل عنها، تروج للمشروع الغربي، حيث استخدم الغرب في ذلك كافة الأدوات والوسائل التي مكنته من ذلك، وأصبح التغريب حالة داخلية في المجتمعات التي منحها استقلالًا مزيفًا، ترك مجموعة من المتغربين الذي سيطروا على معظم المؤسسات والمراكز ذات التأثير السياسي والثقافي والاجتماعي، وباختصار صاحبة القرار المسيطر المهيمن على مصير المجتمع وحركة التاريخ. ومن ثم نجح في ربط الدول المستعمرة بثقافة الآخر ونمطه الحضاري.

وكانعكاس لواقع التبعية الإرغامية التي فرضها الغرب على المجتمعات الإسلامية، ظهرت عدة اتجاهات فكرية وإصلاحية تسعى إلى تجاوز مرحلة التبعية وواقع التروي الحضاري إلى مرحلة التمسك بالهوية لعودة المجتمع إلى تبوء مقعده الحضاري من جديد.

ويختزل بن نبي ما ظهر من تيارات في العالم الإسلامي الحديث في تيارين: تيار الإصلاح الذي ارتبط بالضمير المسلم، وتيار التجديد وهو أقل عمقًا، وأكثر سطحية، وهو يمثل مطامح طائفة اجتماعية جديدة تخرجت في المدرسة الغربية، ومن أمثلتها الحركة الجامعية التي قامت في «عليكرة» بالهند والتي تزعمها السيد أحمد خان المصلح الإسلامي المشهور ١٨١٧ - ١٨٩٨، وقد تعرضت للعديد من أوجه النقد.

ويرى بن نبي أن التيار الأول هو تيار الإصلاح الذي خط طريقه في الضمير المسلم منذ عصر ابن تيمية، وهو لم يكن «عالمًا كسائر الشيوخ ولا متصوفًا كالغزالي، ولكن كان مجاهدًا يدعو إلى التجديد الروحي والاجتماعي في العالم الإسلامي، وهذا التيار هو الذي أدى إلى إنشاء التوجه الوهابي الذي استمر مع المملكة السعودية.

ويشير بن نبي إلى «الأفغاني» حيث يعتبره نموذجًا لمفكر فريد عُد عصره فاتحة عهد الثقافة والعلم في العالم الإسلامي الحديث، ثم يتحدث عن تأثيره على عديد من شباب المجتمع الإسلامي، حيث كان من بينها قادة حركة الإصلاح في العالم الإسلامي.

وكان هدفه الأول: أن يقوض دعائم نظم الحكم الموجودة آنذاك، كما يعيد بناء التنظيم السياسي في العالم الإسلامي على أساس الأخوة الإسلامية» التي تمزقت في صفين، وبددتها النظم الاستعمارية نهائيًا، وكان هدفه الثاني: أن يكافح «المذهب الطبيعي» أو «المذهب المادي» الذي كان يفتقد أنه كامن في تعاليم «أحمد خان» التي كان ينشرها في جامعة «عليكرة».

ودون الدخول في تفاصيل يشير بن نبي إلى نموذج مماثل من مصر وهو «طه حسين» وذلك من خلال موقفه من قضية الشعر الجاهلي سنة ١٩٢٦.

ويرى بن نبي أن «المؤاخاة» الفعلية، هي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي، مجتمع المهاجرين والأنصار، وعدّهُ بن نبي باعث الحركة الإصلاحية ورائدها.

ثم يرى أن «الأفغاني» قد نظر إلى المأساة الإسلامية من الزاوية السياسية بينما نظر إليها «محمد عبده» كمشكلة اجتماعية، ومن أهم المسائل التي تعرض بن نبي فيما يتعلق بالمدرسة الإصلاحية، منهج الإصلاحيين في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، حيث لاحظ بن نبي سيطرة منهجية علم الكلام التقليدي على مناهج

الإصلاحيين، وهو يرى أن علم الكلام لا يتصل في الواقع بمشكلة النفس، إلا في ميدان العقيدة، والمسلم، حتى مسلم ما بعد الموحدين، لم يتخل مطلقًا عن عقيدته، ولكن هذه العقيدة تجردت من فعاليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جاذبية فردية وتحلل المسلم من وسطه الاجتماعي، وفى هذا الصدد يرى بن نبي، أن المشكلة ليست في أن يتعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فعاليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي كذلك يري بن نبي إمكانية التغيير الحضاري الفعال من خلال مناهج المتصوفة، وخاصة التصوف الذي قاد إلي دروشة المرابطين وشعوزتهم، هذا الطريق لا يمكن أن يقدم لنا الأساس الضروري للإصلاح، لجهودنا إلي النهضة ما بعد محمد عبده: بدأ الفكر الإسلامي ينشط في الحقل الفصيح الذي مهدته له حركة الإصلاح لكن هذا الحقل الذي ظل قرونًا طويلة ومن خلال مقارنة التقليد السائدة، ينبغي أن تنقي الثقافة الإسلامية من تلك المقدسات الوهمية التي تسمى تقاليد ولقد قام بتلك المهمة على خير وجه الشيخ عبد الحميد فاستطاع أن يخلص الجزائر من تلك التقاليد الزائفة التي كانت تتجسد في الطريقة «المرابطية» ولكن فردًا واحدًا يعجز عن القيام بتلك المهمة وحده.

ويستمر بن نبي في نقد وتحليل العديد من الممارسات السلبية كانتشار الجدل الذي يعده من أضر الأمور على كيان الأمة، ومرض الحرفية التي تفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، وهو أمر لازم لكل جهد إيجابي من أجل البناء، ثم يتحدث عن الجمود وانعدام الفاعلية حيث تحولت الحقائق الحية التي شكلت فيما مضى وجه الحضارة الإسلامية إلى حقائق خامدة في جمل رائقة وعلم غزير.

ولم تعد ثقافتنا المعاصرة تعبيرًا عن اهتمامه بالعمل، بل عن مجرد الشهوة إلى الكلام، كذلك والامتداح السلبي للماضي ومن ثم أصبحت ثقافتنا توصف بالأثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى أمام بل ينتكس إلى وراء.

ويختتم بن نبي كلامه حول المدرسة الإصلاحية بقوله أن كل محاولة لإعادة بناء حضارة الإسلام يجب أن تقوم أولًا وقبل كل شيء على أساس سيادة الفقه الخالص «على «الواقع السائد» ولاشك أن هذا يقتضى رجوعًا إلى الإسلام الخالص عن طريق تنقية النصوص القرآنية من غواشيها الكلامية والفقهية والفلسفية.

الحركة الحديثة في العالم الإسلامي:

لقد تواكب الاتجاه الحداثي – مختلف فصائله – مع المرحلة الاستعمارية حيث سعى الاستعمار الغربي – بكافة الأساليب والطرق – من فرض ثقافته وأفكاره على الشعوب المستعمرة، وقد أفسحت الإدارة الاستعمارية المجال للترويج للثقافة الغربية، فقد شجعت الإدارة الاستعمارية فصائل التحديث وفق المنهاجية الغربية، فوقفت وراءها وشجعتها وحمت دعاتها من ردود الفعل الشعبية والتي تجلت خاصة في حملة التغريبيين على القواعد الإسلامية والمعطيات الدينية، ليس بقصد إصلاحها، وإنما بقصد نبذها من أجل إحلال الثقافة الغربية محلها.

ويرى مالك أن الحركة الحديثة – ذات التوجه الغربي – لا تعدو أن تكون على مستوى يتخبط فيه مجتمع فقد توازنه التقليدي، إذ هي مكونة في جوهرها من عناصر خالية من المعنى مأخوذة عن المدرسة الاستعمارية، وفى هذا الصدد فإن بن نبي يؤكد على أن الأوروبي لم يفد إلى الشرق كمدنى، بل كمستعمر، والمدرسة الاستعمارية لم تكن تهتم بنشر عناصر الثقافة الأوروبية، بقدر ما تحرص على توزيع نفاياتها، التي تحيل «المستعمر» عبدًا للاقتصاد الأوروبي.

وحول تجربة الطالب العربي حين ذهب لتلقى العلم في أوروبا، يرى مالك أن الطالب المسلم لم يجرب حياة أوروبا، بل اكتفى بقراءتها، أي أنه تعلمها دون أن يتذوقها، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه ما زال يجهل تاريخ حضارتها، أدركنا أنه لن يستطيع أن يعرف كيف تكونت، وكيف أنها في طريق التحلل والزوال، لما اشتملت

عليه من ألوان التناقض، وضروب التعارض مع القوانين الإنسانية، ولأن ثقافتها لم تعد ثقافة حضارة، فقد استهالت بتأثير الاستعمار والعنصرية، «ثقافة إمبراطورية».

ويقف بنى نبي عن النمط الاستهلاكي لمنتجات الغرب الذي تروج له الحركة الحديثة، فيرى بن نبي أن هذا الاستعداد في العالم الإسلامي لجمع منتجات مستعارة، يدلنا على ما تتسم به الحركة الحديثة من طابع بدائي، إذ ليست الحضارة تكديسًا للمنتجات، بل هي بناء وهندسة.

وحول سلبية الوقوف عند ظواهر الأشياء، يرى بن نبي أن هناك ناسًا يتصدرون الحياة العامة، فيتناولون الأشياء لمجرد التفاصح والتشدق بها، ولا لدفعها ناشطة إلى مجال العمل، فكلامهم على هذا ليس إلا ضربًا من الكلام، مجردًا من آية طاقة اجتماعية أو قوة أخلاقية، على الرغم من أن هذه القوة هي الفيصل الوحيد في المواقف الفعالة الأخلاقية والمادية. ويستمر في نقد الحركة الحديثة، حيث يرى أن فكرة النهضة قد انعدمت عندهم، فلم تكن مسألة تجديد العالم الإسلامي وبعثه، وإنما كان هدفهم انتشاله من فوضاه السياسة الراهنة، وهذه فكرة مستعارة لا ترى في الواقع مشكلة الفرد المسلم، بل ترى مشكلة النظم الأوروبية.

وحول المرجعية الفكرية للحركة الحديثة، يرى بن نبي أنها بغير نظرية محددة، لا في أهدافها، ولا في وسائلها، والأمر بعد هذا لا يعدو أن يكون غرامًا بالمستحدثات، فسبيلها الوحيد هو أن تجعل من المسلم «زبونًا» مقلدًا دون أصالة، لحضارة غريبة تفتح أبواب متاجرها أكثر من أن تفتح أبواب مدارسها، مخافة أن يتعلم التلاميذ وسائل استخدام مواهبهم في تحقيق مآربهم.

وفى المجال الفكري يرى بن نبي أن الحركة الحديثة لم تأت بعناصر ثقافية جديدة لعدم اتصالها الواقعي بالحضارة الحديثة، ولانفصالها الفعلي عن ماضي ما بعد الموحدين، فإنها قد جبلت من الغرب تيارًا من الأفكار صالحًا للمناقشة، وإليه

يرجع الفضل في أنه وضع على بساط البحث جميع المقاييس التقليدية.

العوامل الداخلية لأزمة المسلم المعاصر:

لقد حاول الاستعمار الجديد للعالم الإسلامي، تفريغ المسلم من دائرة الوعي بذاتيته وحضارته، ثم الاتجاه به في محاولات مذهبية وإيديولوجية مضطربة ومتناقضة، يؤكدها واقع التردي الحضاري الذي تحياه الأمة، وذلك ضمن البدائل الغربية في سبيل النهوض الحضاري.

وفى هذا الصدد يرى بن نبي أن العالم الإسلامي اليوم خليط من بقايا موروثة عن عصر ما بعد الموحدين، وأجلاب ثقافية حديثة جاء بها تيار الإصلاح، وتيار الحركة الحديثة، وهو خليط لم يصدر عن توجيه واع، أو تخطيط علمي، وإنما هو مجموعة من رواسب قديمة لم تصف من طابع القدم، ومستحدثات لم تتم تنقيتها، هذا التلفيق لعناصر من عصور مختلفة، ومن ثقافات متباينة، دون أدنى رباط طبيعي أو منطقي يربط بينها.

فكيف يرى بن نبي وجهة المسلم المعاصر خلال هذه المرحلة؟ يرى بن نبي، أن شكل النهضة الإسلامية الراهن هو خليط من الأذواق، ومن المحاولات، ومن التذبذب، ومن مواقف التدين أيضًا، فهي في الواقع قد اختارت الطريق الذي يقضى لها ما تريد من «أشياء» و«حاجات» دون أن تبحث عن «الأفكار» و«الوسائل».

ويرى أن محاولات النهوض تمت دون توجيه منهجي، وقد ثار العالم الإسلامي الحديث، لكن ثورته كانت في ظرف مغلق، هذا العجز العضوي تذكيه دائمًا ضروب من الشلل، أصابت النواحي الخلقية والاجتماعية والعقلية جميعًا، وأخطر هذه النواحي هو الشلل الأخلاقي، ومصدر هذا البلاء معروف أن ما هو مسلم به أن «الإسلام دين كامل» بيد أن هذه القضية قد أدت في ضمير ما بعد الموحدين إلى قضية أخرى هي: «ونحن مسلمون»؛ فنتج: «إذا نحن كاملون».

ويرى مالك أن واقع المجتمع الإسلامي - أي السبب الداخلي - يظل ذا سطوة وتفوق، بل إن الفكر في البلاد الإسلامية التي تحررت من الوصاية الاستعمارية لم تكتمل بعد شخصيته، ولم يظفر بعد، بحق في السيطرة على وجوه الحياة وبقيمته الاجتماعية، وباعتباره وسيلة للعمل وأساسًا جوهريًا للنشاط. إن الأسباب الداخلية التي تنتج عن القابلية للاستعمار هي الأسباب ذات الشوكة والغلب، ولكي نتخلص من الاستعمار، يجب أن نتخلص من القابلية للاستعمار.

وفيما يتعلق بالعوامل الخارجية لأزمة المسلم المعاصر:

يرى بن نبي أن الاستعمار بصورته هذه يعتبر عنصرًا جوهريًا في فوضى العالم الإسلامي، فهو لا يتدخل فقط بمقتضى العلاقة المباشرة بين الحاكم والمحكوم، بين المستعمر والمستعمر وإنما يتدخل أيضًا بصورة خفية في علاقات المسلمين بعضهم ببعض. وباستطاعتنا أن نعقد مقابلة مباشرة بين القابلية للاستعمار والاستعمار، باعتبارهما عوامل شلل وتعجيز.

وفيما يتعلق بأزمة الغرب:

يرى مالك أن ثمة دوافع اتجهت به إلى تناول الحضارة الغربية، فهو يرى أن المسلم الحديث ما زال يجهل التاريخ الحضاري للغرب، لذلك لا يستطيع أن يعرف كيف تكونت الحضارة الغربية، وكيف أنها في طريق التحلل، لما اشتملت عليه من ألوان التناقض، ضروب التعارض مع القوانين الإنسانية.

وهذا الإشعاع العالمي الشامل الذي تتمتع به ثقافة الغرب هو الذي يجعل من فوضاه الحالية مشكلة عالمية، ينبغي أن نحللها، وأن نتفهمها في صلاتها بالمشكلة الإنسانية بعامة وبالتالي بالمشكلة الإسلامية.

ومن أهم الظواهر السائدة في مسار الغرب، ظاهرة تخلف الضمير في نموه عن العلم وعن حركة الفكر، فما الضمير إلا تلخيص نفسي للتاريخ، وخلاصة لأحداث

الماضي منعكسة على ذات الإنسان، فهو بلورة للعادات والاستعداد والأذواق.

لقد أصبح الرقم سلطانًا في المجتمع الفني الآلي بأوروبا، وصار الإحصاء لا معقب لحكمه، فليس للضمير الإنساني، ولا للفطرة الإنسانية، دخل في الحياة الجديدة، والماكينات هي التي تحرر وتحسب، بل وتسخر الإنسان للانخراط في حركة أجهزتها.

لقد كشفت الأزمة التي يمر بها الغرب عن السرطان الأخلاقي الذي يلتهم الحضارة، ويدلل على أن النهضة الفنية وحدها عاجزة برسومها ومعادلاتها عن حل المشكلة الإنسانية.

ويصف مالك النظام الذي خلق الفوضى في أوروبا بأنه ذو صبغتين، فهو علمي واستعماري، في آن، فإذا ما كان في أوروبا فكر بمنطق العلم أما إذا ما انساح في العالم فإنه يفكر بعقلية الاستعمار.

فأوربا التي كان عليها أن تهدى سعى الإنسانية، قد اتخذت من مشاعل الحضارة «فتيلًا» يحرق بدلًا من أن يضيء، وفى ضوء ما أشعلت من نار أشاعت وجهها في المستعمرات حتى جاءت على أرضها هي، أوروبا هذه رأينا الفوضى تنتشر فيها، نفس الفوضى التي أشاعتها في بقية أجزاء الأرض، ونفس الضلال، بل إنها قد تجرعت نفس الكأس المحتوم كأس الاستسلام لقوى الشر الأسطورية.

وحول عنصرية ومركزية الغرب، يرى بن نبي أن الاستعمار قد انقلب في الضمير الأوروبي إلى قومية عمياء آلت بعد تصفيتها وتقطيرها وتكريرها إلى أسطورة «الجنس المختار» التي ستتخذ فيما بعد ذريعة إلى بلوغ قمة البربرية، وبذلك أدى إلى قيام الاستعمار على أساس احتقار الأجناس إلى نشوء «جنس أسمى» بين سائر الأجناس البشرية.

ويستمر بن نبي في الحديث عن أزمة الغرب، حيث عرض لسيطرة النزعة الآلية والمادية على إنسان الغرب، وأثر النزعة الآلية – المادية على القيم الأخلاقية.

والعالم الإسلامي لا يمكن أن يعيش في عزلة، بينما العالم يتجه في سعيه إلى التوحد، فليس المراد أن يقطع علاقاته بحضارة، تمثل ولاشك إحدى التجارب الإنسانية الكبرى، بل المهم أن ينظم هذه العلاقات معها.

وحول الطرق الجديدة لوجهة العالم الإسلامي:

في موقفه من المؤسسات السياسة والمنظمات الحكومية والاتفاقات والمعاهدات، يرى بن نبي أن المعيشة اللائقة هي الشرط الجوهري لتكوين الوعي الشعبي، والإيمان القومي، وبدون هذا الوعي وذلك الإيمان لا تساوى الاتفاقات السياسية.

وفى نقده لسياسة الجامعة العربية فإنه يعتقد أنها تستطيع أن تسترد هيبتها، إذا ما اهتمت بالمشكلات الاجتماعية والاقتصادية، ورسمت خطة تستهدف تحسين مستوى المعيشة، فيجب أن نحرر شعوبنا من خوفها الاقتصادي، وأن نؤمن لها حقها في التعليم، وأن نعنى بصحتها، وهذا هو الطريق الوحيد إلى النهضة الحقة، والوسيلة لتأمين وجودنا.

وفى هذا الصدد فهو يسخر مما يسمى «السياسة العليا» ويطلق على هذا النوع من الممارسة لفظة «البوليتيكا» ، والمقصود به السياسة غير الهادفة، والتي تعتمد على فوضوية القرار وغياب الخطط الغير فعالة.

وهو يعتبر هذه الممارسات من قبيل التردي المزمن الذي حمل الخلفاء والأباطرة والأمراء العرب، على فرض نظام صارم على الشعب، لا ينطوي على أدنى اهتمام بالتربية، أو بالتقدم الاجتماعي.

والداء الدفين وراء هذه الممارسات، داء «القابلية للاستعمار» ، ونحن ندرك الآن شيئا فشيئا، أن واجبنا هو أن نبذل جهودًا كبيرة في جميع الميادين، وأن نقوم

بكثير من الواجبات لكي نصل إلى حقوقنا التي تصبح حينئذٍ مشروعة.

وفيما يتعلق بعلاقة المسلمين بغيرهم يرى مالك أنها يجب أن تقوم على الوعي، فالمسلم لكي يقوم بدور فعال في حركة التطور العالمي ينبغي أن يعرف العالم وأن يعرف نفسه، وأن يعرف الآخرين بنفسه، فيشرع في تقويم قيمه الذاتية، إلى جانب تقويمه لما تملكه البشرية من قيم، والحق أن من العسير الشروع في عمل كهذا، في عالم لا يخضع لأي مقياس.

الخلاصة والأثر:

لاشك أن الصفحات السابقة لـ «وجهة العالم الإسلامي» حاول بن نبي أن يقدم التبرير التاريخي والنقدي لوجهة المجتمعات الإسلامية، كما حاول إبراز أهم القوانين التي تحكم مسار الحضارات من حيث التقدم أم من حيث السقوط. وحاول بن نبي في هذا الكتاب قراءة وتحليل أهم الاتجاهات الفكرية في واقعنا الإسلامي المعاصر، فاختزلها على الاتجاهين الإصلاحي السلفي، والحداثي التغريبي.

وحاول بن نبي أن يبين ويفسر الأسباب الداخلية والخارجية لفوضى العالم الإسلامي الحديث، ولذلك يعد مالك من أهم المفكرين المسلمين الذين قرأوا الواقع الحضاري الغربي وفق منهجية تحليلية تتسم بالعمق والواقعية حيث عايش هذا المجتمع، ولم يكتف بالقراءة النظرية لهذا الواقع.

ومنهج بن نبي في قراءة التاريخ - وخاصة الإسلامي - لم يكتف برصد الظاهرة أو الواقعة التاريخية، وإنما قام بتحليها وإخضاعها للمرجعية الإسلامية، وقد قسم تاريخ الأمة الإسلامية إلى ثلاث مراحل:

١- مرحلة الإسلام الأولى أو ما أطلق عليه «الدفعة القرآنية الحية» وهى التي صاغت وصنعت الجيل الفريد الذي التف حول النبي ﷺ.

٢- مرحلة المدنية الإسلامية، وهى مرحلة الازدهار الحضاري، وتنتهي بسقوط دولة الموحدين.

٣- مرحلة الجمود والانحطاط، وهى المرحلة التي لا نزال نعيش في نتائجها وآثارها، وهى المرحلة التي تمثل القابلية للاستعمار وتعتبر «دورة الحضارة» من أهم المفاصل التي تقوم فلسفة الحضارات بدراستها لما لها من خطورة في فهم الواقع التاريخي المقارن ودور ذلك في فهم الحراك التاريخي ومن ثم الحضاري، ودورة الحضارة في فكر بن نبي ترتبط بشروط نفسية وزمانية، ثم تأكيده على كون «ابن خلدون» من أهم الرموز الفكرية والعلمية التي أثارت موضوع الدورة الحضارية عند تحليله لواقع الدولة الإسلامية. وفى تناوله لأزمة الغرب يرى أن الوقوف عند العلم والعقل والفن لا يكفى لصياغة المعادلة الحضارية.

ويرى مالك أن النتائج المترتبة على غياب البعد الروحي يعمل بنهاية دورة حضارية، لما للعامل الديني من أهمية في المسار التاريخي. ويؤرخ لسقوط دولة الموحدين الذي كان في حقيقة الأمر صورة لسقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها.

ثم يتناول بن نبي المذهب المادي في الغرب، الذي عجز عن مواجهة أزمة الغرب الاجتماعية والأخلاقية، سواء على مستوى الداخل أم الخارج. ووقف بن نبي عند مدرسة محمد عبده كرمز فعال للمدرسة الإصلاحية في الواقع الإسلامي المعاصر، وفى هذا الصدد فقد قام بنقد محاور سلبية في واقعنا، كالتقليد والجمود والحرفية.

ويرى بن نبي أن الأحاديث النظرية تسيطر على ثقافتنا المعاصرة، وغياب المنهج العملي في واقعنا السياسي والاقتصادي والثقافي..إلخ وهو يعتبر في حديثه عن وجهة العالم الإسلامي، أن المجتمع الإسلامي أضحى خليطًا من بقايا موروثة من عصر ما بعد الموحدين، ثم تأثيرات الفكر الغربي على جهودنا الفكرية.